حال السلف في الحج

أصبح الحديث عن أحوال السلف في الحج حديث عن علم قد درس مناره ومحيت آثاره فلم يبق منه إلا أطلال من الجمل والعبارات التي تردد للناس حثاً على التمسك بما كان عليه السلف. الحج فيه تأثير عظيم في تزكية النفوس وإصلاح القلوب لما فيه من معاني العبودية ومظاهر الربانية التي تجلت في كل أعماله ومناسكه وإذا كان قد ورد عن بعض السلف أنه قال: الركب كثير والحاج قليل فما عسانا نحن أن نقول ونسأل الله ألا يمقتنا فما أحوجنا أن نعود إلى ما كان عليه السلف الصالح حتى نفوز بسعادة الدارين.

وقال مجاهد رحمه الله: صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه فكان يخدمني.

وهذا ديدن كثير من السلف كعامر بن عبد قيس وعمرو بن عتبة بن فرقد مع اجتهادهما في العبادة كانوا يشترطون ذلك في أسفارهم.

حال السلف عند الإحرام والتلبية:

كانوا يستشعرون معنى الإحرام فهو يعنى عندهم الانخلاع من جميع الشهوات الأرضية والتوجه بالروح والبدن إلى خالق السماوات والأرض فكان أنس بن مالك ☺ إذا أحرم لم يتكلم في شئ من أمر الدنيا حتى يتحلل من إحرامه ولما حج جعفر الصادق فأراد أن يلبى تغير وجهه فقيل له مالك: فقال أريد أن ألبي وأخاف أن أسمع غير الجواب!!

لذا لما أضاف الله عز وجل ذلك البيت إلى نفسه ونسبه إليه بقوله

عز وجل لخليله:{وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ} [الحج: ٢٦]، تعلقت قلوب المحبين ببيت محبوبهم فكلما ذكر لهم ذلك البيت حنوا وكلما تذكروا بعدهم عنه أنُّوا إليه، وقد رأى بعض الصالحين الحاج في وقت خروجهم فوقف يبكي ويقول واضعفاه ثم تنفس وقال: هذه حسرة من انقطع عن الوصول إلى البيت فكيف تكون حسرة من انقطع عن الوصول إلى رب البيت؟ فمنهم من كان يتعلق بأذيال الرجاء ومنهم من كان يغلب عليه الشوق والقلق ولكنهم يتساوون جميعاً في الذكر والدعاء.

وكان أبو عبيده الخواص يقول في الموقف: واشوقاه إلى من يراني ولا أراه وكان بعدما يكبر يأخذ بلحيته ويقول: يا رب قد كبرت فأعتقني.

عبادة السلف في الحج:

ذكر الإمام ابن رجب رحمه الله أن من أعظم خصال البر في الحج إقامة الصلاة فمن حج من غير إقامة صلاة لا سيما إن كان حجه تطوعا كان بمنزلة من سعى في ربح درهم، كمن وضع رأس ماله وهو ألوف كثيرة وقد كان السلف يواظبون في الحج على نوافل الصلاة وقد حج مسروق فما نام إلا ساجداً وينبغى للحاج أن يحافظ على عمله ويتجنبه من الرياء والسمعة والمباهاة والمفاخرة [1].

حال السلف في عرفات:

روى الفضيل أنه نظر إلى نشيج الناس وبكائهم عشية عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء قصدوا إلى رجل واحد يسألونه دانقاً -

(1) لطائف المعارف.

يعنى سدس درهم - أكان يردهم قالوا: لا، قال: والله للمغفرة عند الله أهون من إجابة رجل لهم بدانق.

وإني لأدعو الله أسأل عفوه وأعلم أن الله يعفو ويغفر.

حال السلف في الطواف:

من العبادات التي تطلب في حال الطواف غض البصر لوجود النساء مع الرجال أثناء الطواف قال ابن الجوزي: اعلم أن غض البصر عن الحرام واجب ولكم جلب إطلاقه من آفة وخصوصاً في زمن الإحرام وكشف النساء وجوههن فينبغي لمن يتقى الله عز وجل أن يزجر هواه في مثل ذلك تعظيماً للمقصود وقد فسد كثير بإطلاق أبصارهم هنالك.

قال ابن المحب الطبري: ومن المنكر الفاحش ما تفعله الآن نسوان مكة وغيرهن في تلك البقعة ليالي الجمع وغيرها من الاختلاط بالرجال ومزاحمتهن لهن في تلك الحال مع تزينهن لذلك بأنواع الزينة واشتغالهن عند إتيانه بما يوجب الروائح العطرة فيشوش بذلك على متورعي الطائفين ويجتلبن بسبب استدعاء نظر الناظرين وربما طافت إحداهن بل أكثرهن بغير جوربين ويشق على الناس الاحتراس من ملامستهن في بعض الأحايين وهذه مفسدة عظيمة عمت بها البلوى وتواطأ الناس على عدم إنكارها فينبغي للعبد أن ينزه طوافه عن كل ما يوجب شيئاً من ذلك ولا يأمن عقوبة سوء الأدب وفحش المخالفة هناك.

يقول ابن القيم:

أما والذي حج المحبون بيته ::: ولبوا له عند المنهل وأحرموا

وقد كشفوا تلك الرءوس تواضعا ::: لعزة من تعنو الوجوه وتسلم
يهلون بالبيداء لبيك ربنا ::: لك الملك والحمد الذي أنت تعلم
دعاهم فلبوه رضا ومحبة ::: فلما دعوه كان أقرب منهم
ولما رأت أبصارهم بيته الذي ::: قلوب الورى شوقاً إليه تضرم

• الأضحية وقيمة التضحية: تظل قصة الفداء درساً بليغاً في الالتزام بأمر الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم من حديث أم سلمة ♥: **"إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره لا يأخذن من شعره ولا من أظفاره شيئاً حتى يضحي-.**

الحكمة في ذلك تشبيها بالمحرم وليدخل بهذا التشبيه جو الإحرام من أول يوم ثم هو إبقاء على كل أجزاء الجسم رجاء أن يعتق الجسم كله من النار وهكذا إذا قعدت بالناس أقدارهم فلن يكونوا هناك في حمى البيت العتيق فليكونوا هناك بقلوبهم ليتحقق معنى الوحدة الإسلامية في أوفي معانيها.

قيمة التضحية: تبدو ذلك قيمة التضحية من خلال هذه الآداب أنك تفعلها لله ومن أجل الله ومرضاة لله:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾} [الأنعام: ١٦٢]، وهذا يدل على عمق إيمان المضحى أما غير القادر فإن الإسلام يسامحه شريطة ألا يكون راغباً عنها زاهداً وإنما هو على ما قيل (العين بصيرة واليد قصيرة وفي قلبه شوق فياليته كان مع المضحين فيفوز فوزاً عظيماً).

الأضحية وبشائر النصر: إن في الأضحية وما ضمت عليه من قيمة التضحية ما يبشرنا بنصرنا على عدونا، إن قيمة التضحية المغروسة في ضمير أمتنا لهى سلاح النصر الذي هو آت لا ريب

فيه.

الأضحية ليتنا نقتل فيها ونضحى بالكسل والرياء وأفعال الشر [1].

وعند الترمذي من حديث عائشة:**"ما عمل ابن آدم من عمل يوم النحر أحب إليه من إهراق الدم إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأطلاقها وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفساً-.**

* * *

(1) من مقال للدكتور/ محمود عمارة.